الفصل الثاني

العالم الإسلامي والإستعمار

كان احتلال بريطانيا لمصر بداية التكالب على قارة أفريقيا (ذات الأغلبية الإسلامية) ذلك لأن هذا الإستعمار والاحتلال دفع الدول الأوروبية نحو القارة في محاولة لبسط نفوذها على بعض المناطق الإستراتيجية حفاظاً على توازن القوى. لقد كان احتلال مصر مقدمة لمرحلة التكالب وفاتحة عهد جديد في التاريخ القارة الأفريقية وإيذاناً بموجة إستعمارية أدخلت القارة في حسابات القوى الكبرى، ولم تتوقف عمليات التوسع الأوروبي وعمليات الإستعمار إلا بعد تقسيم القارة إلى تلك الوحدات القومية التي تعيش القارة في ظلها حتى يومنا هذا[١].

لقد كان الصدام بين المسلمين والمسيحية ظاهرة بارزة في تاريخ أفريقيا في أواخر القرن التاسع عشر ولم يتوقف الصدام حتى قيام الحرب العالمية الأولى، ومن هنا تظهر قيمة الكفاح الأفريقي المسلح وتتضح الجهود التي بذلها الأفارقة وقواد الجهاد الإسلامي في مقاومة هذه الهجمة الإستعمارية على كل أرجاء القارة وخصوصاً في أفريقيا جنوب الصحراء بين زعماء المسلمين وقوى الدول الأوروبية التي كانت تسعى لوضع أسس الاحتلال الفعلي موضع التنفيذ[٢].

وفي قارة آسيا تم للإنجليز الاستيلاء على الهند سياسياً وانتقلت سلطة الحكم

---

(١) عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، المسلمون والإستعمار الأوروبي لأفريقيا (الكويت: المجلس القومي للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٩م) ص١٧

(٢) المرجع نفسه ص٢٨

رسمياً من شركة الهند الشرقية (التي أسست في ٢١ ديسمبر ١٦٠٠م والتي انضمت إلى شركة أخرى جديدة في سنة ١٦٨٩م إلى التاج البريطاني) وزالت بذلك إحدى الدول الكبرى التي قامت في مستهل القرن السادس الميلادي وهي دولة المغول في الهند أو الدولة التيمورية (نسبة إلى تيمور لنك) مؤسس هذه الإمبراطورية الإسلامية في آسيا الوسطى. أما الدولتان الأخريان إذ ذاك فهما الدولة الصفوية في إيران ودولة الأتراك العثمانية في آسيا الصغرى وشرقي أوروبا. كما تم في السنة نفسها وهي ١٨٥٧م استيلاء الفرنسيين على الجزائر كلها إلى الصحراء بعد أن ابتدأوا غزوها سنة ١٨٣٠م. ومن قبل هاتين الدولتين الإستعماريتين انجلترا وفرنسا احتلت هولندا في بداية القرن السابع عشر جزر الهند الشرقية عن طريقة شركة الهند الهولندية التي تأسست ١٦٠٢م. ذلك بعد ما ضاع استغلال البرتغال بإعلان ملك أسبانيا ضمها إلى بلاده في سنة ١٥٨٠م تلك الدولة التي عبدت الطريق الإستعماري الغربي المسيحي في وسط آسيا وشرقها في الهند وفي اندونيسيا سنة ١٥١١م والتي حصل ملكها من البابا إسكندر على صك رسمي بأن البرتغال سيدة بحار العرب والعجم والهند والحبشة، تقسيم واضح لبلاد المسلمين على دول الغرب الإستعماري وتمهيداً لاحتلال العالم الإسلامي، فبعد قرنين ونصف أي منذ بادية القرن السابع عشر الميلادي إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر تمكن الإستعمار الغربي المسيحي من السيطرة سيطرة كاملة على المسلمين في وسط آسيا وشرقيها واتخذ نقطة ارتكاز لتمدده من أفريقيا، كما تمكن من مد نفوذه إلى قلب العالم الإسلامي ومركزه الرسمي في منطقة الشرق الأدنى وبذلك طوق العالم الإسلامي من الشرق والغرب وسلط ألاعيبه ودسائسه على بقية المجتمعات الإسلامية الأخرى بين هذين الطرفين، فوهنت هذه التجمعات الإسلامية الأخرى بين الطرفين. فوهنت هذه التجمعات وانحل عقدها وسقط بعضها أثر بعض تحت نفوذ المستعمر الغربي وما جاءت الحرب الأولى وانقضى أجلها حتى أصبح العالم الإسلامي كله تحت نفوذ هذا المستعمر[١].

(١) محمد البهي، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالإستعمار الغربي، الطبعة الحادية عشر (القاهرة: مكتبة وهبة، ١٩٨٥م) ص٢٣ -٢٤.

لقد حاول الإستعمار أن يحتل العالم الإسلامي وقدمت جيوش الاحتلال العسكري إلى العالم الإسلامي تقودها عقليات البربرية الصليبية فهي تتمتع بوافر كبير من الدهاء والحقد والخبث وهي تعرف سلفاً لها مهمة أعظم من مهمة أجدادها، وإن نجاح هذه المهمة يتوقف على الدقة في تنفيذ الخطة الجديدة، وقد قطفت أولى ثمرات الخطة عندما استطاعت أن تحارب جيوش الدولة الإسلامية العثمانية بأناس ساروا في ركاب القائد ألنبي حتى فتح القدس واستولى عليها وهي أول حرب صليبية في التاريخ يكون قوامها مغفلون منتسبون إلى الإسلام وبمقتضى اتفاقية (سايكس بيكو) توزعت عساكر الصليبيين الجدد العالم الإسلامي عدا أجزاء قليلة وابتدأت دوائر الإستعمار تنفيذ مخططها المرسوم من جهود تتمثل فيما يلي:

١- القضاء على الحركات الجهادية كحركة المهدي في السودان وحركة محمد عبد الله الحسن في الصومال وعمر المختار في الجزائر وعبد الكريم الخطابي في المغرب العربي وإسماعيل الشهيد في الهند أما في العصر الحديث فقد أعدم الإمام حسن البنا القائد المعروف وذلك بعد أن عجزت المخططات عن احتواء دعوته. ثم ضربت الحركة التي قادها حسن البنا بطريق مباشر وغير مباشر.

٢- إلغاء المحاكم الشرعية وإحلال القوانين الوضعية محلها. لا تكاد الجيوش الخاصة بالاحتلال تضع أقدامها على أرض إسلامية حتى تبادر بهذا العمل لأنهم يدركون نتائجه البالغة، وأول قطر بدأ بإلغاء الشريعة هو الهند وحتى سنة ١٧٩١م كانت الشريعة هي القانون العام فيها ولكن الإنجليز تدرجوا في إلغائها حتى تم ذلك في أواسط القرن الماضي، يلي ذلك الجزائر التي بدأ إلغاء الشريعة فيها عقب الاحتلال ١٨٣٠م. وفي مصر التي أدخل إسماعيل (عميل فرنسا) القانون الفرنسي فيها ولم تأت ١٨٨٣م حتى كان نصيب الشريعة الإسلامية لا يتجاوز الأحوال الشخصية إلا قليلاً. ثم تونس أما بلاد العراق والشام فقد تأخرت بسبب تبعيتها للقضاء العثماني الذي يعتمد على مجلة الأحكام العدلية ولم تلغ الشريعة إلا بعد إلغاء الخلافة وثبوت أقدام الإنجليز والفرنسيين فيها.

٣- القضاء على التعليم الإسلامي والأوقاف الإسلامية أدرك المستعمرون أن

أعظم وسيلة لإبعاد المسلمين عن دينهم هو أن يكونوا جهلاء به واتعظوا بمصير (كليبر) الحاكم الفرنسي لمصر أيام الاحتلال الفرنسي لمصر أيام احتلال نابليون وقد قتل (كليبر) على يد الطالب الأزهري سليمان الحلبي، وبما ذاقوه من مقاومة في الهند والمغرب تزعمها علماء الشريعة وطلابهم، فوضعوا المخططات الماكرة لتقليص التعليم الديني تدريجياً وإحلال التعليم اللاديني محله وأشهر هذه المخططات كانت مخططات كرومر ودنلوب في مصر الذي أنتج سياسة بعيدة المدى دقيقة الخطى في القضاء على الأزهر ومعاهدة وكتاتيب القرآن ووضع نموذجاً خبيثاً للدس على الإسلام وتشويه تاريخه خلال المنهج التعليمي ولا أدل على ذلك من نجاح هذه الخطة من بقاء آثارها في مصر والدول العربية والإسلامية عامة. وفي العراق وضع المستر (كوك) خطة مماثلة حولت العلماء إلى موظفين بمديرية الأوقاف بحجة تنظيم الأوقاف إدارياً ومنهجياً، وتم القضاء على التعليم الديني الذي كان يعيش على أموال الأوقاف بل أقفلت الجوامع التي كان القرآن يحفظ فيها. وفي المغرب كان الفرنسيون يحولون الجوامع والزوايا إلى اصطبلات للخيول ومخازن للأسلحة بعد طرد طلابها. في الوقت الذي كان فيه التعليم اللا ديني يدعم بكل وسيلة. وبلغ هذا العمل قمته بالجامعات والكليات التي بنيت في اسلامبول والقاهرة وبيروت ولاهور وغيرها لا دينية صرفة.

٤- استخدام الطوائف غير الإسلامية وإحياؤها وهذه الخطوة من أخبث الخطوات وأعمقها دلالة فحيثما حل المستعمرون يقومون ينبش العقائد الميتة أو تنظيم الطوائف غير الإسلامية ويمهدون لها السبل لتولي المناصب المهمة مستثمرين حقدهم على المسلمين بالزعم بأن الفتح الإسلامي كان إستعماراً لهم وأن المسلمين متعصبون ضدهم... الخ. ففي بلاد الشام تعهدت فرنسا بدعم النصارى وسلمتهم الوظائف العليا ونظمت فلولهم في جمعيات ومؤسسات عسكرية ومدنية، وعند إنشاء الجامعة السورية - مثلاً - عينت لها مديراً نصرانياً هو قسطنطين زريق أما الطوائف الباطنية فقد استطاعت بواسطة المستشرقين أن تبعث عقائدها وتنشر كتبها وسمى الفرنسيون النصيريين وطائفة النصيرية (علويين) واصطنعوهم عملاء لهم وحرضوهم على الالتحاق بالجيش حتى يحتلوا قيادته العليا وأخيراً

استطاعوا أن يتحكموا في الأكثرية المسلمة وأن ينظموا فرقاً عسكرية حديثة بهم.

وفي مصر أقيمت القضية نفسها (قضية التعصب على قدم وساق وتحت ستار اللا تعصب واللا طائفية) مكن للأقباط من بناء الكنائس والمدارس بكثرة وتولي المناصب الوزارية في الحكومة برعاية الإنجليز. وفي معظم دول أفريقيا خرج الإستعمار منها مخلفاً وراءه حكومة نصرانية تحكم شعوباً تصل نسبة المسلمين والإسلام في بعضها ٩٩٪.

أما الهند فقد تحول المسلمون فيها بعد الإستعمار من قوة حاكمة إلى أقلية ضعيفة ينهشها الإنجليز والهندوس والسيخ والبوذيون من كل جانب وهذا إلى غير الطوائف التي أحدثها الإستعمار لهدم العقيدة الإسلامية كالبابية والبهائية والقاديانية التي تتضح عمالتها له بمرور الأيام.

٥- اصطناع العملاء من أبناء المسلمين. وقد قدم المبشر زويمر هذه النصيحة في واحد من المؤتمرات (تبشير المسلمين يجب أن يكون بواسطة واحد من أنفسهم ومن بين صفوفهم لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أعضائها) وليس أدل على ذلك من أن القوى التي حكمت العالم الإسلامي بعد رحيل الإستعمار لم تكن الحركات الجهادية التي جابهت الإستعمار والمستعمرين بل كانت أحزاباً وقوى مشبوهة تشهد أعمالها وآثارها بأنها جنت على الأمة الإسلامية ما لم يجنيه الأعداء السافرون مما يعطي الدليل الواضح على أن تنفيذ المخطط اليهودي وكل إليهم مع اختلاف في الأدوار وتنوع في الإخراج.

٦- تنفيذ توصيات المستشرقين والمبشرين والإشراف على إنجاح مهامهم وتذليل العقبات التي تعترض جهودهم. هذا غير الهدف الظاهر للإستعمار وهو إذلال العالم الإسلامي وتسخير أبنائه وثرواته لأطماع المستعمرين.

لقد بذل الإستعمار كل جهوده لإشاعة الفساد في المجتمع الإسلامي العظيم وزرع الشكوك في العقول الإسلامية وقتل الطموح في النفوس المسلمة وبث الفرقة والشقاق في الصف الإسلامي، حتى تعاونت كل أجهزة الإستعمار من دعائية وسياسية وفكرية واقتصادية لتحقيق أهداف الإستعمار في الدول الإسلامية التي منها:

١- شن الافتراءات على الإسلام وتشويه حقائقه تحت ستار العلم والبحث العلمي المجرد وزرع الشك في الجيل المسلم في صلاحية دينه لهذا العصر وزعمهم بأن الإسلام لا يتفق مع العلم وأكبر من قام بهذا الافتراء المستشرقون المتعصبون من قلم المخابرات في دول الإستعمار وهم جميعاً ما ندر منهم يدرسون الإسلام ليتصيدوا نواقصه بزعمهم ويكشفوا على تثبيت ما يتمكن به الإستعمار في ديار المسلمين وهذه وظائف كل من اشتغل بالاستشراق وعلوم الإسلام وتاريخ الإسلام يحاول الإستعمار أن يغلب الحقائق الإسلامية رأساً على عقب.

٢- تفكيك عرى الوحدة بين المسلمين تلك الوحدة الطبيعية الربانية التي أقامها الله بين المسلمين وجعل الحج والاجتماع حول البيت الحرام من أبرز مظاهرها ومن أقوى دعائمها وكانت أقوى العوامل في دحر الأعداء منذ الحروب الصليبية وقد عمل الإستعمار على بث الشعارات التي فرقت بين المسلمين ومزقت صفوفهم كالنعرة القومية مثلاً فقد حرضوا الأتراك بالقومية الطورانية ليضعفوا شأن الخلافة الإسلامية وهي آخر خلافة تجمع عليها الإستعمار من كل مكان وبهذه النعرة وتفريق شمل المسلمين يسهل على المستعمر القضاء عليها، كما بثوا في الفارسيين القومية الفارسية وفي المصريين القومية الفرعونية وفي السوريين القومية الفنيقية أو القومية السورية والقومية البربرية في المغرب المسلم حتى باكستان التي لم تتقدم ولم تقوم إلا بالإسلام يبثون فيها القومية الباكستانية بهذه القوميات كادوا يهدمون بناء الإسلام، وعمل الإستعمار على إنشاء قومية أفريقية ليقطع الصلة بين مسلمي أفريقيا وبين مسلمي العالم الإسلامي ثم بعد ذلك يسهل عليه إدخالهم في النصرانية وذلك بعد فشل جهود التنصير.

٣- لابد أن يغزو الإستعمار أذهان الشباب غزواً فكرياً بأشكال عديدة ومختلفة وكان أن غزا أذهان الشباب بالمبادئ التي تهدم الإسلام كالشيوعية والرأسمالية والاشتراكية، وقد اتفق المستعمرون مهما اختلفت سياستهم أن الإسلام لا يصلح أن يبقى في الوجود لأنه خطر على مصالح جميع المستعمرين.

ومن أهدافهم إشاعة الانحلال الخلقي في الشباب والفتيات فهم يزينون لهم الخروج على الآداب الإسلامية والأخلاق الربانية بحجة أنها رجعية وتخلف ويزينون

لهم الانحراف والانصراف إلى العبث واللهو والانحلال وفقدان المثل الأعلى وضياع الشخصية بحجة أن ذلك كله تقدم وتمدن وأنه علامة الرقي والحضارة والإستعمار يشجع ويمجد الأدب الإباحي والأدباء والشعراء الإباحيين والمغنيين والخليعين وغيرهم بكل أسباب القوة ويشيع مؤلفاتهم ويلقي عليها الأضواء حتى يجعلهم للشباب المثل الأعلى[١].

(١) محمد محمود الصواف، المخططات الإستعمارية لمكافحة الإسلام، الطبعة الأولى (مكة المكرمة: دار الثقافة للطباعة، ١٦٥م) ص١٣٤-١٣٩